كبسولات السينما المستقلة:

اختزال الفيلم الروائي في دقيقة واحدة!

القاهرة ـ «القدس العربي»

من كمال القاضي:

كنا قد تنبئنا في كتابات سابقة على هذه الصفحات بنهوض السينما المستقلة وأشرنا إلى تصاعد مؤشراتها في ظل الأزمة التي تمر بها السينما الروائية الطويلة على خلفية القاعدة الكوميدية التي فرضت نفسها بالقوة على الجمهور بعدما أسقطت القضايا الكبرى من العقول والضمائر وصارت الفكاهة عنوان كل شيء!

وجاءت بالفعل اللحظة التي أكدت صدق حدسنا، بعد انعقاد مهرجان أفلام دول الاتحاد الأوروبي بالقاهرة لمدة عشرة أيام تحت رئاسة الناقد سمير فريد حيث أقيم خلال فترة انعقاد المهرجان قسم خاص بالأفلام الروائية القصيرة ذات الإنتاج المستقل عرضت فيه تجارب جيدة وجديدة تستحق أن نتناولها بالنقد والتحليل، بغض النظر عن رأينا الكلي في المهرجان ومصادر التمويل والهدف من وجوده.. فنحن هنا لن نكتفي بعرض نموذج واحد من الأفلام القصيرة.. ولكن سنحاول التركيز على التجارب الأكثر تميزا لعدة اعتبارات من بينها أن معظم الأفلام التي شاركت قصيرة جدا من الناحية الزمنية وعليه فإن التناول يحتمل دمج أكثر من فيلم في عملية التقييم، غير أن المساحة لا تسمح بتناول كل فيلم على حدة، ومن ثم يستوجب الأمر تطبيق قاعدة التناول الجمعي كي تأخذ النماذج المختارة حظها من التقدير بما تستحقه، فأول الأفلام التي استرعت انتباهنا في مهرجان الأيام العشرة فيلم «الأسانسير» للمخرجة هديل نظمي، وهو رؤية درامية تدور أحداثها في «15 دقيقة» تتمحور كلها حول شاب في سن الخامسة والعشرين تقريبا يعيش وحيدا ويعاني من عقدة الخجل والانطواء، ولا يعرف من سبل الترفيه والتكيف غير الممارسات الاجتماعية البسيطة المتمثلة في ابتسامات الأصدقاء المقربين وبعض الإيماءات التي يستقبلها من الجيران أثناء المقابلات القدرية التي قد تحدث بالصدفة في مدخل العمارة أو داخل «الأسانسير» صعودا أو هبوطا من وإلى الشقة.. وتمضي حياة الشاب الرقيق في هذا السياق إلى أن يحدث التغيير المفاجئ ذات يوم، إذ يشعر بحركة غير عادية خارج باب شقته في وقت متأخر من الليل فيخرج بالبيجاما والروب لاستطلاع الأمر فإذا به يجد نفسه مستدرجا من قبل بعض الشباب وبصحبتهم فتاة حسناء إلى الشارع فيركب معهم السيارة بدافع الفضول وبرغبة قوية في الخروج عن المألوف في حياته، غير أنه من ناحية أخرى يستحسن الفتاة ويشتهيها فتكون هي الطعم الذي ابتلعه بسهولة وأدى به إلى قضاء ليلة شبه حمراء في الهواء الطلق بعيدا عن الأسوار والجدران وقفص الوحدة الذي سجن نفسه فيه طوال «25 عاما» وبالفعل دخل الشاب دائرة اللهو والعبث لأول مرة ويشرب حتى الثمالة نخب حريته لتكون الضحكات المتصاعدة هي نهاية الأحداث الدرامية وبداية الحياة الجديدة التي زاوجتها هديل نظمي بإتقان شيد داخل شخصية واحدة وعبرت عنها في زمن قصير جدا استخدمت فيه التكثيف لغة دالة على الإشارات والدلالات البسيطة بالموسيقى والإضاءة والمونتاج والتصوير والأداء الحركي للممثلين وحسن التصرف في استخدام زوايا الكاميرا، فضلا عن اعتماد أسلوب أو نظرية الإيحاء لترجمة صفحات السيناريو المكتوبة في أقصر المشاهد لتعوض الصورة التي تستغرق أقل من دقيقة على الشاشة عما هو مسطر في صفحتين او أكثر، وهي إمكانية لا تتوافر إلا لمخرج امتلك حسا مرهفا، وثقافة رفيعة تمكنه من إدراك التفاصيل ورصدها دون عناء، وبالتالي يتم تصويرها للمشاهد بشكل ممتع ولائق من الناحية الفنية والمزاجية وهو ما يلخص أيضا الوظيفة الدقيقة للسينما المستقلة أو الروائية القصيرة حسبما اصطلح على تسميتها كما أو كيفا.

ومثلما لعبت هديل على تيمة الوحدة والحاجة الإنسانية إلى ضرورة الانخراط في المجتمع ومجاراة الواقع بحثا عن الحرية جاءت كذلك تجربة رامي عبد الجبار في «بيت من لحم» المأخوذة وحيا ولغة وتعبيرا عن قصة الكاتب الكبير يوسف إدريس التي تجسد حالة الحرمان العاطفي أو الغريزي لدى الأسرة المكونة من أم وفتاتين يجمعهن فراش واحد يتقلبن عليه طوال الليل، يتحرقن بنيران الغربة وينشدن إطفاء نيرانهن في حضن رجل، وبالفعل يتم ذلك بعد ما تتزوج الأم من رجل كفيف يشاركهن المعيشة ويشاطرهن الفراش الساخن، ويتم الاتفاق بين الزوج والأم على شفرة خاصة لتحقيق اللقاء الجنسي في صمت تحت جنح السكون والظلام، حيث تلبس الأم في الليلة الموعودة «خاتماً» يلمسه الشيخ الكفيف فلا يضل طريقه بين زحام الفراش إلى الزوجة، وهكذا يرسم يوسف إدريس صورة عبثية لحالة الجوع الغريزي والاحتياج الإنساني ولا يتورع في أن يزيح ستار القيم الاجتماعية والمحظورات الدينية والأخلاقية، فيجعل الفتاتين تعربان عن رغبتهما في أن يلبسا «الخاتم» لتصل إليهما يد الشيخ، وهي الصدمة التي أراد يوسف إدريس في قصته الإبداعية الخالدة أن يستخدمها للفت النظر إلى أهمية الجنس في حياة كل إنسان، وحرية التعبير عن مكنون النفس البشرية وأسرارها، وهو ذات المعنى الذي استلهمه المخرج رامي عبد الجبار حين قدم رؤيته السينمائية لمعالجة القضية الإنسانية والتأمل في احتياجات البشر المشروعة التي باتت بفعل قسوة الظروف الاقتصادية والاجتماعية صعبة التحقيق والمنال، الأمر الذي استعصى معه استمرار رحلة الإنسان في دوران مستقيم ومنتظم، إذ يفقد الإنسان جزءا كبيرا من طاقته الذهنية من جراء عدم إشباع رغباته بشكل حيوي.. ويعود التميز في المعالجة الفنية لهذه القضية لأدبية ورقي أدوات التعبير وإعمالها داخل النسيج الدرامي دون ابتذال أو انتهاك لطبيعة المتلقي وحيائه الفطري وسجاياه الخلوقة، ويعد ذلك النوع الدرامي هو الأصعب على الإطلاق فالمبدع يكون محاطا بالكثير من الروادع والمحاذير التي تفرض عليه أن يتمتع بقدر وفير من الحرفية والبلاغة في توصيل المعنى بأقصر العبارات والمشاهد بما لا يزيد عن الزمن الدرامي المحدد سلفا وهو «15 دقيقة»، ذلك التحدي الصعب الذي تزيد ضراوته في أفلام أخرى لم تبلغ مساحتها اكثر من دقيقة أو دقيقتين، فمثلما حدث في أفلام «مصر 98، ست أسئلة للبنانيين، زمان آخر، 100 بورتريه، الطموح الأعمى» وكلها أفلام من إخراج حسن خان وتتراوح مدتها بين دقيقة ودقيقتين!

و لعل هذه المسحة السينمائية الجديدة التي تمثل قمة الحداثة الفنية هي إفراز لحالات التطويق الإبداعي التي سيجت بها المؤسسات الإنتاجية الواقع السينمائي فكان من نتائجها أفلام تحمل كثيرا من الشجون وقليلا من الكلام، ليبقى الغرض الأساسي هو تنشيط الوعي والتحايل على المتعة البصرية وتوفيرها ولو لمدة دقيقة واحدة على الشاشة!

تظاهرة الأيام الثقافية الكندية في سورية وموضوع المواطنة:

وزارة الثقافة السورية تمنع الفيلم الكندي «صباح»

دمشق ـ «القدس العربي» من أنور بدر:

بدعوة من السكرتير الثاني في السفارة الكندية دانيل ماكسي ميوك، وبحضور لفيف من الإعلاميين ومراسلي الصحف جرى الإعلان عن إطلاق تظاهرة الأيام الثقافية الكندية في سوريا، تحت عنوان «المواطنة»، والذي أكد السفير الكندي بدمشق بريان ج دايفز على أهمية هذا الموضوع في بلد مثل كندا، مؤسس أصلاً من قبل مهاجرين من مختلف أرجاء الأرض، مضيفاً مفهومه للمواطنة «يتعلق بأفراد من مختلف الثقافات والخلفيات يشتركون معاً في الحقوق نفسها والواجبات نفسها، في ظل حكومة واحدة، وهم يعملون معاً لما فيه خير مجتمعهم، كما أنه يتضمن مسؤولية المواطنين لكي يكونوا فاعلين بشكل إيجابي في شؤون بلادهم».

وقد لا تقل أهمية موضوع المواطنة في بلد مثل سوريا عنه في كندا، خاصة وأن النسيج المجتمعي يتكون من مجموعات إثنية ودينية تتباين في اعتقاداتها ومنابتها، إلا أنها يجب أن تخضع لمفهوم المواطنة والذي يساوي الجميع في الواجبات وفي الحقوق أمام السلطة والقانون معاً.

وقد اختارت السفارة الكندية لهذه التظاهرة برنامجاً غنياً بالنشاطات الأكاديمية والثقافية، التي تقام ما بين 19 شباط/ فبراير و5 آذار/ مارس القادم، وأهم هذه النشاطات دعوة البروفيسور ويل كيمليكا أستاذ الفلسفة في جامعة كوين/ كندا، لإلقاء سلسلة محاضرات في جامعات دمشق وحلب وحمص، وفي كلية العلوم السياسية، إضافة إلى محاضرة مركزية وأساسية برعاية وزير الثقافة الدكتور محمود السيد في مكتبة الأسد الوطنية في يوم 2006/2/19.

والبروفيسور ويل كيمليكا حائز على شهادة دكتوراه من جامعة أكسفورد، وله عدد من المؤلفات أهمها «الفلسفة السياسية المعاصرة، الليبرالية والمجتمع والثقافة، المواطنة في بلد متعدد الثقافات، المواطنة في المجتمعات التعددية» وقد حاز على عدد كبير من الجوائز الكندية والعالمية نتيجة لأبحاثه المعمقة في مجال المواطنة.

إضافة لهذه المحاضرات القيمة هناك معرض مشترك سيقام في كل من حلب ودمشق للفنانة الكندية بيرنيس سورج والفنان السوري سعد يكن، وإن كان هذا الأخير علم في المشهد التشكيلي السوري، فإن الفنانة بيرنيس تزور سوريا لأول مرة، رغم أنها سورية الأصل لجهة والدتها التي هاجرت من جديدة عرطوز في ريف دمشق، وتقول الفنانة الكندية في هذا الخصوص «إنني اعمل بذاكرة مستمدة من ذاكرة أمي، لقد كانت أمي دائماً ملهمتي».

وحول مشاركتها بهذا المعرض وعلاقتها بموضوع المواطنة، فهي تسأل: «ما الذي يجعلنا مختلفين وما الذي يجمعنا معاً؟ لربما بدت ورقة الشجرة غير مناسبة للإجابة عن تساؤل اجتماعي، بيد أنها ببعدها الرمزي يمكن أن تصبح كذلك، فهي يمكن أن تكون رمزاً للعائلة، إنها تجمعنا جميعاً، فهي تتنفس من أجلنا».

***

الحقل الثالث لتظاهرة الأيام الثقافية الكندية هو حقل السينما، حيث ستعرض أربعة أفلام وثائقية في المركز الكندي السوري للمعلومات في معهد اللغات بجامعة دمشق، وهي «تعليم السلام في زمن الحرب، مدرسة بلا حدود، أبناء ترودو الآخرون، حياة جديدة في ارض جديدة» وهي أفلام تدورحول قضايا الهجرة، والمواطنة، والنظرة إلى الآخر، وحقوق الإنسان، ومفهوم السلام.

إضافة إلى ذلك هناك ثلاثة أفلام روائية كانت مقررة لهذه التظاهرة، وهي «رحلة إلى أوتاوا»، للمخرج الهندي غوراي شيت، عن رحلة يقوم بها صبي هندي إلى العاصمة الكندية أوتاوا للانضمام إلى أفراد عائلته هناك، حيث تبدأ رحلة اكتشاف الآخر ومحاولة التأقلم، وفي هذا الفيلم قلب للقصة الهندية «رحلة إلى الهند». كما سيعرض فيلم عن الجالية الهندية في مدينة تورينتو من إخراج ديبة مهيتا بعنوان «هوليود بوليود».

أما الفيلم الثالث والأهم بالنسبة لنا فهو فيلم «صباح ـ Sabah» من إخراج ربا ندا وهي مخرجة كندية من أصول سورية، والفيلم حديث جداً من إنتاج عام 2005، يتناول قصة فتاة في عائلة من أصل سوري، محافظة نسبياً، تقع في حب مواطن كندي لا يهتم بالعقائد الدينية، وتبدأ المشاكل والتفاصيل التي تصنع مساحة هذا الفيلم.

إلا أن الرقابة في وزارة الثقافة قررت منع عرض هذا الفيلم، على أهميته، فيما يتعلق بحوار الحضارات والمثاقفة، فهو بعيد عن العنف وعن التفجير، لكنه تزامن مع إحراق السفارات في دمشق، وبيروت وبعض العواصم العربية رداً على الرسوم الكاريكاتيرية التي تناولت شخص النبي محمد، وبالتالي مشاعر المسلمين، مما دفع بمسؤولي الرقابة في وزارة الثقافة السورية إلى عدم عرض فيلم «صباح» رغم أهمية موضوعه، وخصوصية المهاجرين السوريين. وأنا اعتقد انه لو قدر لهذه التظاهرة أن تكون قبل شهر من الآن لما تعرض هذا الفيلم للمنع، فموضوعه مطروق في السينما والدراما معاً، وليس أدل على ذلك من فيلم «علاقات عامة» للمخرج سمير ذكرى، والذي عرض في مهرجان دمشق السينمائي الأخير، ونال الجائزة البرونزية ضمن المهرجان، إذ يناقش زواج بطلة الفيلم (سلافة معمار) المسلمة من المسيحي (فارس الحلو)، وقد نال المخرج موافقات مسبقة من دار الإفتاء ومن بطركية الروم الارثوذكس. فلماذا يمنع فيلم «صباح» لمخرجة كندية من أصل سوري؟!

بروشور التظاهرة

الشاعر الفلسطيني حكمت العتيلي:

عاشق البحر.. على سرير المرض

عيسى بطارسه*

■ (بين سرير طبي يقبع في منتصف غرفة صغيرة تستسلم لرائحة الأدوية الثقيلة، ولمجموعة كبيرة من الأجهزة، مختلفة الوظائف التي تحشر نفسها، وتحشر زوايا الغرفة فيما بينها، وبين غرف العناية المركزة، في أكبر مستشفيات مدينة «ويتير» في جنوب كاليفورنيا، تعثرت رحلة عمر الشاعر الفلسطيني حكمت العتيلي. وخرجت أو أخرجت مرغمة عن مسار سبعة وستين عاما، لتقف بلا حول أمام الفاصل الصغير بين الموت والحياة.

ورغم الحب الذي يحيطه به أفراد عائلته، وأصدقاؤه ومحبوه، فلقد قرر أو قرر له أن يدخل شبه غيبوبة، لم يخرج منها حتى هذه اللحظة، وبعد مرور أكثر من خمسة اسابيع.

لا أحد من سكان الأرض يعرف أين ومتى ستصب هذه الغيبوبة، ومن أي الأبواب سيخرج حكمت العتيلي في نهايتها، لكنه من المؤكد أنه يقف يوميا، وجها لوجه أمام الأذرع السوداء العنيدة الفولاذية، هو نفس الموت الذي صرخ في وجهه منذ أكثر من أربعين عاما:

«ياسارق الأحباب ..

أنت»!

خرج من زيارة من زياراته الكثيرة لنفس المستشفى، قبل عامين وفي يده قصيدته الأخيرة الجميلة الدامعة العينين المتشبثة بالحياة التي يقول فيها:

«مازال في القنديل زيت،

ما زال لي امرأة

وأولاد

واحباب وبيت،

لكأن في قلبي صهيل صاخبُ

لكأن ألفا من جياد

في دمي تتواثبُ..

هل نضب زيت القنديل هذه المرة ياحكمت؟

هل تعب الصهيل في قلبك، وانكفأ على نفسه؟

وهل كفت الجياد عن التواثب، وانضمت لأحبائك الذين يقفون أمام الوقت والساعات والدقائق بقلوب مكسورة خائفة مرتعشة لا تعرف ما تتوقع، ولا أين سيوصلها ويوصلك الدعاء ولا اللهفة ولا الدموع ولا الطب الذي يرفع يديه قليلا قليلا كل يوم حائرا فيما يفعله أمام هذه الأنهيارات المتوالية.

وماذا ظل لدينا غير: يارب ..)

كان ذلك في نهاية عام 1990، حيث كنا نتناول العشاء في منزل صديقنا يعقوب خوري، في مدينة «ليكوود» في منطقة لوس أنجيليس، يقيمه احتفاء بالصديقين الكبيرين الزائرين من الأردن الأديب فخري قعوار والناقد نزيه أبو نضال، عندما فوجئنا بمضيفنا يقول بدون سابق انذار، أنه ذهب ليلة الأمس هو وحكمت العتيلي الى اجتماع الصندوق العربي الفلسطيني. توقفت يدي باللقمة في منتصف طريقها الى فمي، لدى سماعي اسم حكمت العتيلي، ونظرت بشكل عفوي الى وجه صديقي فخري، حيث كان بدوره يحملق في وجهي، كأنه يريد أن يسألني اذا كنت سمعت ما سمع، سبقني فخري الى سؤال مضيفنا: هل قلت حكمت العتيلي؟

ـ نعم، حكمت العتيلي، هل تعرفه؟

ـ حكمت الشاعر؟

قال يعقوب وقد قلب يديه بحيرة

ـ شاعر؟ لا علم لي بذلك!

تدخلت وفي نيتي حسم الموقف

ـ هل معك رقم هاتفه؟

قال فخري دون أن يعطيه فرصة للجواب

ـ هل ستلتقي به قريبا؟

ـ بعد يومين في اجتماع الصندوق

سألته عن علاقة حكمت بالصندوق، فقال أنه رئيسه لهذه الدورة

قال له فخري

ـ أرجو أن تسأله اذا كان هو الشاعر حكمت، وأن تخبرنا بأسرع وقت ممكن!

بعد يومين، اتصل بنا يعقوب من ليكوود وقال أنه سأل حكمت عن قضية الشعر، وأنه اي حكمت استغرب ذلك وقال أنه لم يخبر أحدا منذ قدم من سان دييجو، فكيف عرف ذلك، وقال له صديقنا أن فلانا وفلانا وفلانا سألوني عنك، وأردف أنه لم يبد عليه أنه يعرف أيا منكم.

قال فخري لأنه في الحق لا يعرفنا، لكننا نعرفه حق المعرفة.

***

شكل صدور مجلة «الأفق الجديد» المقدسية، الذي صدر عددها الأول في 30 أيلول (سبتمبر) عام 1961، جامعة أدبية ينهل من رحابها عطشى الأدب، في الأردن وخارجه، على أيدي الرواد الأوائل، كما على أيدي جيل جديد من الأدباء والشعراء. ولعل من أبرز الأسماء التي وقف أمامها محبو الشعر، طويلاً وبكثير من الأعجاب،حينذاك، كان اسم الشاعر حكمت العتيلي، الذي قلما خلا عدد من مجلة الأفق الجديد من قصيدة جديدة له، والذي امتد اسمه الى خارج الأردن، واستحلت قصائده صفحات منيرة من كبريات المجلات الأدبية المتخصصة كالآداب والأديب.

على شواطئ قصائد حكمت العتيلي، وقفنا نمعن النظر في أمواجه وأنوائه وقواربه ونوارسه، ونرى في الكثير من صوره المستحدثة الحية النابضة المعبرة، ما يدعو للأنبهار.

ولعل قصائد حكمت العتيلي، هي ما أثار لي، ليس حبي المطلق للشعر وحسب، بل حسمت لي ترددي في مراحلي الأولى بين كتابة القصة أو كتابة القصيدة.

***

قر قرارنا تلك الليلة أن ندعو الشاعر حكمت، لنتعرف اليه عن قرب، وليتحفنا ببعض من شعره، الى العشاء الذي يقام بعد يومين، وداعا للضيفين العزيزين، مع نخبة من الناشطين والصحفيين والكتاب في المنطقة.

ولقد كنت أحفظ لشاعرنا عن ظهر قلب، مقاطع من قصائده وجدت لها منذ ثلاثين عاما، مستقرا في ذاكرتي كما في قلبي:

«عيناك كالزمان كالبحار،

كرحلة طويلة بلا قرار،

يخوضها من مطلع النهار،

لمطلع النهار،

مسافر حزين»

«في قلبي يابحرُ حملتك غنوه،

في عيني صلاةٌ ودعاءْ

وأتيتكَ أرجوك ثباتَ الخطوة،

ونشدتك لي أملاً ورجاء.»

«قل للنورس أنا

سنغسلهُ بندى الفرحةِ ان جاءْ

أنا سنصلي كي يرجع

صبحاً ومساءْ»

«ولدتني أمي ذات نهار مشمس،

فعشقتُ الشمس أنا

مذ ولدتني أمي،

ورأيت أبي يغرس أشجار الزيتون الغضه فيما يغرس

فجرى حب الزيتون بدمي».

ولي في الدار أشيائي الصغيرةُ،

مثلما للبحر أشياؤه:

أعاصيري، هدوئي، ضجتي، صمتي،

وأمواجي، حياتي، غربتي، موتي!

ولكني مللت الدارَ، بحراً مله ماؤه».

***

إذا كان الشاعر محمود درويش قد لقب على أيدي بعض النقاد بعاشق التراب، فحكمت العتيلي هو عاشق البحر والنوارس بلا منازع. فأنت تكاد تسمع هدير البحر، أو اصطفاق أجنحة النوارس على الماء في كل ما كتب حكمت العتيلي من شعر، طوال حياته، فهو عاشق وفي لهذا العشق، أمين له، وقد يقوى هذا الهدير وقد يخف مثله مثل خفق أجنحة نوارسه، حسب موضوع القصيدة.

دنا الشاعر ايليا أبو ماضي من البحر قليلا حين قال في طلاسمه:

"قد سألت البحر يوما

هل أنا يابحر منكا؟

هل صحيح ما رواه

بعضهم عني وعنكا؟

أم ترى ما زعموا زورا وبهتاناً وإفكا؟

ضحكت أموجه مني وقالت .. لست أدري"

أما حكمت العتيلي، فلم يكتفِ بالوقوف أمام البحر، ومغازلته مغازلة الخائف، بل دنا منه أكثر، لمسه بأصابعه، غمس رموش عينيه بمائه المالح، ليتسنى له أن يرى في العمق أكثر، وأن يصغي السمع لأنفاس البحر، على نحو يتيح له أن يترجمها بدقة لا متناهية، وأن يرقب عن قرب تلك الأعماق الغامضة الرهيبة القاتلة حينا، الثائرة حيناً، الحنونة حينا آخر:

"في عينيك رأيت الحزن نديا كالنعناع البري

حزنا دفاقاً أي حنان فياض قدسي

ولقد قلت حزنا يابحر

وصرخت عطبنا يابحرُ"

وليس صدفة أن ديوان شعره الوحيد الذي صدر له، في منتصف الستينات، عن دار الآداب البيروتية، يحمل اسم يابحر.

صافحته كما لو كنت أعرفه منذ دهور، وصافحني وهو لا يعرفني. كان خفيض الصوت، هادئ السمات، في عينيه وحشة غربة طويلة، ربما سكنتهما نتيجة لهذا الرحيل المتواصل، وعدم الاستقرار الأزلي الذي عاشه شاعرنا العتيلي منذ مراحل حياته المبكرة. ربما منذ اضطرته دراسته أن يرحل عن قريته «عتيل» وهو بعد في مطلع مرحلته الثانوية، ليستقر في مدينة طولكرم، كما سيظهر لاحقاً.

عندما تأملت وجهه، كادت عشرات الصور الشعرية التي أوقفتني أمامها مذهولاً، منذ زمن طويل، الحائرة الثائرة الباكية الشاكية المتمردة المؤمنة، جميعها ترفرف حوله مثل مجموعة من الفراشات التائهة، لا يراها أحد غيري، حتى هو نفسه. صحيح أن صديقي فخري، كان يعشق شعره مثلي، لكن شيئا ما خاصا، كنت أحس أنه يصبغ همومي وأحلامي بنفس اللون الذي كان يصبغ به هموم وأحلام حكمت.

قرأ لنا قصيدة، يبحث فيها عن حبيبته، في مدينة كبيرة مزدحمة، ربما كما هي لوس أنجيليس. كان صوته يميل الى الهمس، ولاحظت أنه لم يرفع رأسه من الورقة التي تحمل قصيدته، ليرى وقع ما يقرأ في عيون مستمعيه. وطوال الجلسة كان يجيب على أسئلتنا باقتضاب، ولكن بعمق.

في القصيدة عاد الشاعر بلا حبيبته، وعدت أنا وفي نيتي أن حكمت سيكون في هذا المغترب، صديقي الأقرب.

***

ولد الشاعر حكمت العتيلي، في 1938/8/8، في بلدة عتيل قضاء طولكرم. يقول عنها الشاعر دائما، أنها مركز الكرة الأرضية بلا منازع. في عتيل أنهى حكمت دراسته الابتدائية فقط، حيث أتم دراسته الثانوية في مدينة طولكرم. تفتحت براعمه الشعرية مبكرة، وبدا لديه اهتمام خاص باللغة العربية نحوها وصرفها، دفعه لهذا الاهتمام، اضافة الى جده لأمه، معلموه الذين توسموا فيه نبوغا من نوع خاص.

بعد مرحلة الثانوية، أتم دراسته في دار المعلمين في عمان، وفيها كلفه أستاذ اللغة العربية، فائز على الغول برئاسة تحرير مجلة القلم، التي فتحت له نوافذ أدبية فسيحة، وأهلته ليصبح مدرسا للغة العربية، وقد تم تعيينه، في مدينة معان الصحراوية، حيث عاش قسوة تجربة الغربة، والبعد عمن يحب، وعما تعود عليه، خفف من غلواء قسوة التجربة، مجموعة من الأصدقاء المعلمين، الذين نشأ بين بعضهم وبين حكمت العتيلي، صداقات حقيقية جميلة، كثيرا ما نراها تطل برأسها في بعض قصائده حتى المتأخرة منها.

من معان خطفته وظيفة مدرس أخرى للغة العربية، لموظفي شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) في المملكة العربية السعودية، ثم عين في نفس الشركة، بعد وقت قصير، محررا لمجلة قافلة الزيت، التي تصدرها أرامكو باللغة العربية، حيث قضى خمسة عشر عاما هناك، في انقطاع شبه كامل عن الحركة الأدبية في العالم العربي، الا في اجازاته القصيرة التي كان يمضيها في ربوع الوطن.

خلال هذه السنوات الجافة من عمره، كان ينشر قصائده في المجلات العربية، ولا يتاح له أن يراها مطبوعة، حيث كانت كل الصحف والمجلات والنشرات التي تصدر خارج المملكة ممنوعة من دخولها.

بعد مرحلة أرامكو، هاجر بعائلته المكونة من زوجته الفنانة أمل عبد المجيد، التي صممت له غلاف ديوانه الوحيد «يابحر» وما لبثت أن دخلت قلبه، لتصمم لهما طريق الحياة، وترسم أجمل ثلاث لوحات تزين عشهما، وهي ولديهما جاد وعادل وابنتهما الوحيدة سرى، الذين ولدوا جميعهم في السعودية.

هاجر الى أمريكا، في النصف الثاني من سبعينات القرن الماضي، حيث أقام خمسة عشر عاما أخرى في مدينة «سانديغو» في جنوب كاليفورنيا، وفيها حصل على شهادة الماجستير في الأدارة العامة، قبل أن ينتقل الى ضواحي مدينة لوس أنجيليس، ليتم له فيها أن يلتقي بمن كون معهم ما أسموه بالمنتدى الأدبي.

بعد أن توطدت صداقتنا، أنا والشاعر الصديق حكمت العتيلي، وبدأت هذه الصداقة تنسج حولنا خيمة، ان لم تكن تصد أوجاع الغربة، وهمومها، فقد كانت تلقي فوقها وشاحا يخفف من حدة ألوانها الفاقعة. وقليلا قليلا تصبح الأشياء في ظل قصيدة جميلة جديدة، لا بأس بها. وبدأنا نعود للحياة وتعود الحياة الينا، على الأقل شعريا. وبدأنا ربما للمرة الأولى، في هذا المغترب، نفقد الأحساس باللاجدوى وباللامبالاة.

بعد حين انضم الى موكبنا الصغير، الذي يبحر ضد تيار الغربة، الشاعرة الفلسطينية المبدعة سلوى السعيد، وانضم الينا القاص الفلسطيني الشاب نظام المهداوي، الذي يصدر جريدة اسبوعية باسم الوطن، حيث شكلت لمنتدانا الثقافي منبرا هاما، وقفزة نوعية مهمة. وكان معنا كذلك الناقد السوريـاللبناني، والقاص انعام الجندي، وانظم الينا الأقتصادي العراقي الدكتور صاحب ذهب، وهو محب للشعر، يكتب القصيدة الكلاسيكية، ولكن ليس على نحو متواصل، كما انضمت الينا أيضا الكاتبة السورية الدكتورة وفاء سلطان، ومن مصر الموسيقي والصحفي صلاح كناكري.

وجد كل منا نفسه في منتدانا الشهري هذا، الذي كنا نقيمه في بيت واحد منا على التوالي مرة كل شهر، نستمع فيه الى ابداعاتنا. لقد شكل عطفة جديدة مهمة لكل منا، ووقفة نحتاجها تجعلنا نحس بانسانيتنا، وبتواصلنا مع الحياة، كل ذلك بعد سنوات من الأحساس بالضياع المطبق.

بعد أن دبت الحياة في أوصالنا المتجمدة بدأت شاعرية حكمت العتيلي، تعود الى طبيعتها الثرة، وبدأت تشكل ينبوع عطاء لا يشحب، يغيب عني يومين أو ثلاثة، فيجيئني صوته على الهاتف فرحا مشرقا ليسمعني ملحمته «مملكة القش»:

يمضغون القات في مملكة القشِ

كأن القات ترياق الحياة.

ويحنون لعهد الجاهليه،

ويصلون لعشرين مليك وأمير وصنم

ويجافون الأله!

فالو الأمر هنا،

يعتنقون الوثنيه،

وألو الأمر هنا

قد وسموا كل الجباه

مثلما توسم بالكي الغنم(...)

* شاعر من الاردن يقيم في امريكا